البَاب الاول

النظريات الاجتماعية

الفصل الأول : الانسان المحافظ ٠

الفصل الثانى : خارج هـذا العالم : النظرية السوسيولوجية لتالـكوت بارسونز ٠

الفصل الثالث : الأزمة فى علم الاجتماع ٠

الفصل الرابع : التنمية بين الرأسمالية والاشتراكية ٠

الفصل الخامس : كارل ماركس : عالم اجتماع أم ماركسى ٠

الفصل الأول

الانسان المحافظ (١)

يعتبر عام ١٩٦٨ حدا فاصلا فى تاريخ السياسة الجماهيرية الديموقراطية · اذ انتهت أخيرا سنوات الهدوء التى اتسمت بالتكيف والتكامل والتطويع Domestication ، حيث هزت الحركات ، والحركات المضادة ، توازن عدد من الديموقراطيات الغربية ، وتحدى جيل جديد افتراضات الكبار وأسلوبهم ·

ويعتبر عام ١٩٦٨ أيضا حدا فاصلا للتحديد الدولى لعلم الاجتماع السياسى ، حيث لم يتحد الانفجار العنيف للقوى الجديدة نماذج ونظريات الخمسينات وبداية الستينات فقط ، ولكنه فرض أيضا أعادة تقويم وسائل جمع البيانات واستراتيجيات التحليل · ولم يكن نقدا وانما كان نقدا ذاتيا ذلك الذى صاغه سيمور لبست S. M. Lipset وشتاين روكان Stein Rokkan فى مقدمة مجموعة مقالات مؤتمر علم الاجتماع السياسى المنشورة عام ١٩٦٨(٢) ، حيث أثارا عددا من التساؤلات الهامة، كالتساؤل حول ماهية العلم الذى أطاحت به ثورة الطلبة فى غضون شهور قليلة ؟ فاذا كانت الاطاحة به قد تمت ، واذا فرضت علينا أحداث ١٩٦٨ أن نراجع بشكل أساسى نظريات ونماذج وطرق بحث علم الاجتماع السياسى · فما هى الأفكار والمداخل الجديدة التى يمكن اكتشافها فى اسهامات لبست نفسه ، وهو الذى أعتبر فى حقبة الخمسينات وبداية

---

(١) أعيد طبعها مع بعض التعديلات الطفيفة من
The New York Review of Books, XV (6) (8 October 1970).

(٢) Otto Stammer (ed.) **Party System, Party organization, and the Politics of the New Masser (Berlin, institute** für Politische Wissenschaft on der Fneien Universitat 1908).

الستينات أحـــد الرواد الرئيسيين لتلك الاتجاهات الشهيرة التى أعلنت (نهاية الأيديولوجيا) ، (وتحقيق الديموقراطية) المستقرة فى المجتمعات الغربية الصناعية(٣) وهى الاتجاهات التى يجب رفضها الآن · وبوضوح أكثر : ما هى النظريات البديلة التى ظهرت فى العلوم الاجتماعية لكى تحتل مكانة الآراء المرفوضة التى سبق أن قدمها ليست ؟

ولا يمكن لأحد أن يخطىء الاستياء المتزايد فى وقتنا الحاضر من حالة النظرية السياسية والسوسيولوجية ، وهى الحالة التى ألح اليهـا ليست فى واحدة من أحدث مقالاته « مقدمة للسياسة والعلوم الاجتماعية ١٩٦٨ » حيث كتب « ··· ان البعض يرى فى نظرية النسق مجرد اطار تصورى من نوع آخـــر ، تكمن فائدته الرئيسية فى كونه اطارا للتنظيم العقلى ، ومن ثم لا يمكن اخضـاعه للتحقق الامبيريقى ، وهو الاختبـار الرئيسى فى العلم » · وبرغم قدرة نظرية النسق وبخاصة فى صورتها السوسيولوجية ـ الوظيفية ـ على أن تقدم لنا أساسا مجموعة من المقولات لتصنيف الظواهر الاجتماعية ، ومن ثم فهى ليست مجموعة من القضايا المفسرة ، الا أنها وبرغم ذلك تضم تفسيرا محددا بطبيعة المجتمع البشرى· بحيث يستند هذا التفسير على فكرة رئيسية تعنى أنه ينبغى ادراك كل مجتمع يستند فى حالة توازن ، وأن أى اهتزاز لهذا التوازن ، اذا حدث، يجب النظر اليه كمثير لتحقيق استجابة التكيف · ومن ثم يستعاد التوازن ويحافظ على المجتمع فى شكله الأصلى أو الذى تعدل بدرجة طفيفة · وقد وجدت هذه الفكرة تعبيرها فى شكل الوظيفية (التى قدمها تالكوت بارسونز Talcott Parsons أساسا) · حيث يتحـــدد النسق الأســاسى للقيم

---

(٣) كتب ليست فى فصل الخاتمة عن الانسـان السياسى ··· لقـد تم حـل المشـاكل الرئيسية للثورة الصناعية ··· حيث وضـع هـــذا الانتصـار الحاسـم للثـورة الاجتماعية الديموقراطية نهاية لسياسة تطويع هؤلاء المثقفين الذين يرون ضرورة امتـلاك أيديولوجيات ويوتوبيات تدفعهم للفعل السياسى · وبالمثل ففى مقالة عن (البناء الطبقى المتغير والسياسـة الاوروبية المعاصرة فى مؤلف جروبارد S. R. Graubard الذى حرره بعنوان (أوربا جـديدة S. R. Graubard (ed.), **A new Europe?** (Boston, Mass, 1964) حيث ادعى أنه بدلا من أن تدعم الطبقة والعلاقات السياسية الاوروبية نموذج مستقبل الولايات المتحـدة ، قـدم التنظيم الاجتماعى للولايات المتحـدة صورة المستقبل الاوربى ، حيث التضاؤل والاختفاء الحتمى للصراع الايديولوجى ·

باعتباره القوة التى تفرض التوازن والتكيف والتكامل ، أى أن مجموعة القيم الأساسية التى يفترض موافقة كل أعضاء المجتمع أو معظمهم عليها هى التى تحدد شكل كل نسق اجتماعى ٠

ومن السهل ادراك الطريقة التى تتلاءم الأفكار المتعلقة (بالديموقراطية المستقرة ، ونهاية الأيديولوجيا) مع الاطار الوظيفى ٠ اذ يمكن اعتبار (الديموقراطية المستقرة) مثالا كاملا تقريبا لمجتمع فى حالة من التوازن٠ بينما قد يفسر توقف الصراع الأيديولوجى ـ وبخاصة فى الشكل المحدد للصراع بين الطبقات ـ كذروة لتحقق عملية التكيف والتكامل من خلال فاعلية القيم الديموقراطية والأساسية ٠ وبتعبير لبست : « ٠٠٠ اذ حقق العمال المواطنة الصناعية والسياسية(٤) » ، وتضاءل الصراع الطبقىومن ثم يمكن تسجيل التغيرات فى الأيديولوجيا السياسيةللمجتمعات الديموقراطية من وجهة النظر هذه بالنظر الى ظهور شرائح جديدة ، وتكاملها الحتمى مع المجتمع والدولة ٠ وفى مؤلفه الأمة الأولى الجديدةThe First New Nation يصـوغ لبست منهجه صراحة بالنظر الى (القيم) والتوازن : اذ يؤكـد أنه « بالنسبة لأهداف هذا المولف ، فقد حاولت أن أفكر بالنظر الى نموذج التوازن ٠٠٠ الدينامى الذى يفترض خضوع المجتمع المعقد لضغط دائم من أجـل تكييف نظمه مع نسق القيم المحورية لديه ، وذلك بهـدف تخفيف التوترات التى تخلقت عن التغيرات فى العلاقات الاجتماعية ٠٠٠ »(٥) ٠

بيد أنه قد يكون خطأ أن ننظر الى الأفكار الخاصة التى قدمهـا لبست فى ذلك الوقت كمجـرد استنتاج بسيط لوجهة النظر الوظيفية عن المجتمع ، حيث اعتمدت هذه الأفكار الى حد كبير ، كما فعلت الوظيفية ذاتها ، على المناخ السياسى للعصر ٠ اذ تطابقت فترة الذروة للاتجـاه

---

(٤) Lipset (1959), op. cit., p. 406.

(٥) S. M. Lipset, **The First New Nation** (New York 1963), PP. 8 - 9. ينبغى أن نلاحظ أن لبست لم يميز بوضوح كامل بين المعانى المختلفة للتوازن ، ولقد انتقد برين بارى Brain Barry بحقة ، فشله فى هذا الصدد فى مؤلفه ،

Sociologists, Economics and Democracy (London. 1970), Chapter VIII.

الوظيفى فى علم الاجتمـــاع مع الفترة التى افترض فى اطارها سيطرة الصراع الاجتماعى على طبيعة الصراع بين الامم · وبخاصة بين النماذج المتبـــاينة للنسق الاجتماعى ·· حيث دخلت الديموقراطيات الغربية فى الفترة بين ١٩٤٠ ــ ١٩٥٠ فى صراع مع الدول الفاشية أولا ، ثم مع الاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية الحديثة التخلق فى أوربا الشرقية بعد ذلك · ومن ثم قورنت الديموقراطية كشكل للمجتمع بصورة حادة ، معهذه الأشكال الأخرى للمجتمع · وأصبح واضحا فى مثل هذه الظروف ضرورة اغفال مصادر الصراع داخل المجتمع وحجبها · ولقد نلاشت فى الحقيقة أهمية هـذه الصراعات واقعيـا فى بعض المجتمعـات . ليس بسبب الاحساس بالوحدة القوميـة التى تعززت باشتراك هـذه المجتمعات فى صراعات خارجية ، ولكن بسبب دخول الديموقراطيات الغربية (وبالمثل مجتمعات أوربا الشرقية) فى فترة ممتازة من النمو الاقتصادى السريع والقوى ، التى أثرت وبأساليب عديدة على العلاقات المتبـادلة بين الطبقات ، وبين الجماعات السياسية · ومن ثم ترسخت فكرة الديموقراطيات كأنســاق اجتماعية مستقرة ، حققت شكلها المحدد (وضمنيا تأسست رؤية مماثلة للمجتمعات الشيوعية) الذى له جذوره فى تربة خصبة ·

ويتمثل الخطأ الرئيسى لهذا التصور الوظيفى فى كونه لم يتأمـــل نقديا خصائص وضع تاريخى محـدد · حيث كانت طبيعته اللاتاريخية مصدرا لهذا الفشل ، ليس فقط بمعنى أنها لا تتضمن نظرية تاريخية (كما يشاع كثيرا) ولكن ، ما هو أكثر أهمية من وجهة نظرى ، لانها أسست لدى المتمسكين بها عدم حساسية مفرطة نحو ممكنات التغير فى المجتمع البشرى ، ومن ثم شجعت الميل نحو اعتبار الحاضر العابر نظاما خالدا · ولذلك كانت الصدمة التى نتجت عن الحركات الراديكالية الجديدة ، والتى بلغت أوجها فى الأزمات السياسية عام ١٩٦٨ ، هائلة للغـــاية ، بحيث دفعت العلوم الاجتماعية نحـــو حالة من الفوضى العقلية التى مازالت باقية ·

فما هى النتائج الايجابية التى تخلقت عن الأزمة ؟ بصفة عامة يمكن القول أنها خلقت نظرة أكثر نقدية ، وان وجدنا دليـــلا ضعيفا فى مؤلف

لبست Lipset الأخير عن اعادة التأسيس الراديكالى لعلم الاجتماع السياسى الذى دلل على وجوده فى ١٩٦٨ · ويعتبر ظهور الاهتمام بالجمود السياسى كموضوع جديد من أكثر التغيرات أهمية ، التى مهدت السبيل للاهتمام بالحركات السياسية · حيث كرست معظم كتابات لبست الاخيرة ، منذ ظهور حركة التعبير الحر لجامعة بيركلى Berkely Free Speechmovement فى نهاية عام ١٩٦٤ ، وبصورة أكثر تحديدا منذ ١٩٦٨ ، لحركات الشباب وبعض مظاهر المعارضة أو المقاومة فى المجتمعات الصناعية الغربية · غير أن الطريقة التى تناول بها هذه الموضوعات ظلت ثابتة أساسا · ففى مقالته التى كتبها مع (فيليب الباش Philip Altbach) عن : (التعليم العالى وسياسة الطلبة فى الولايات المتحدة) والتى نشرت فى المؤلف الذى حرره عن سياسة الطلبة Student Pilitics عام ١٩٦٧ . نجده كان مهتما الى حد كبير فى هذه الفترة بتأسيس تصنيف وصفى للعناصر العديدة فى حركة الطلبة ـ كالخلفيات الأسرية للراديكاليين وموقع الكلية ، وخصائص مختلف الجامعات ، ومناقشة نشأة الحركة الراديكالية بالنظر الى الملامح الداخلية للجامعة دون الاشارة الى مصادر الاتجاه الراديكالى الكائنة فى ظروف المجتمع الأمريكى ككل · وفضلا عن ذلك ، فقد كان مقتنعا تماما بأن المجتمع الأمريكى لا يمكن تغييره وهو لا يحتاج الى تغيير ·

وبشكل أساسى ، تواجه الحركات الراديكالية من أى نوع فى الولايات المتحدة ، بنسقها الاجتماعى المستقر نسبيا ، وتقاليدها العريقة فى الاستقرار السياسى ، صعوبة فى تأسيس نفسها ··· ويمكن القول بأن اليسار الطلابى الجديد الذى ظهر فى منتصف حقبة الستينات قد يتضمن بعض التغيرات فى المجتمع الأمريكى · ومن ناحية أخرى ، فانه من المحتمل ، الى حد كبير ، أن تكون احدى المحاولات الفاشلة فى الولايات المتحدة ، أن تخلق حركة راديكالية فى بيئة غير ملائمة أساسا ·

ولقد اهتز هذا الاعتقاد مؤقتا فى احدى المقالات الأخيرة عن حركة الطلبة ، حيث أجبر لبست فى مؤلفه (الطلاب فى ثورة Student in Revolt عام ١٩٦٩) الذى ظهر فى أعقاب النمو السريع للنزعة

الراديكالية فى حرم معظم الجامعات ، على التخلى عن محاولته تحليلها بالنظر الى المؤثرات الداخلية للجامعة فقط ، حيث يقول « انه اقتبس بحثا ٠٠٠يلقى شكا قويا على الافتراضات التى تحـــاول ربط العنف الأمريكى American Activism بخصـــائص النمـــاذج المتباينـــة للجامعـــات أو سياسات الادارة ، أعنى على الفروض الأساسية التى قدمها منـــذ عامين » وهـــو الآن ينسب النزعة الراديكالية للطلبة صراحة الى المجتمع الأوسع :

« ٠٠٠ اذ ينبغى البحث عن مصادر العنف السياسى بين الطلبة فى الاجراءات السياسية ، وفى العوامل المرتبطة بالنماذج المختلفة للاجراءات السياسية ٠٠٠ وعلينا أن نتوقع زيادة حادة فى عنف الطلبة فى مجتمع تكون قيمة الاجتماعية والسياسية ، لأسباب عديدة ، موضع شك ، وفى بعض الفترات وخاصة حينما تختبر فيها الأحداث حيوية النظام والافلاس السياسى ، فان مشروعية النظم والترتيبات الاقتصادية والاجتماعية تصبح موضع شك » (ص‌ص ٠ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) ٠

ومع أن هذا يمثل أعلى مستوى لاتجاه لبست نحـــو نقد النظـــام القائم ، فاننا نجـده فى أحـــدث كتبه (بلاشتراك مع ايرل راب Earl Raab بعنوان سياسة الجنون The Politics of unreason » يتحـــول نحـــو الاهتمام الكامل بالديموقراطية المستقرة فى اطار دراسة الحركات اليمينية المتطرفة فى أمريكا ٠ ولقد بدأت هذه المرحلة بتحديد الديموقراطية كنزعة تعـــددية Pluralism ، وتحـــديد التطرف extremism « ٠٠٠ عـــلى أنه الدافع المضاد لتعددية الجماعات والمصالح ، ومن وجهة النظر هـــذه تعتبر النزعة اليسارية المتطرفة والنزعة اليمينية المتطرفة الى حـــد كبير نفس الشىء طالما أن كليهما لديه توجيه مضاد للتعددية » ٠ وأعتقد أنه من المشكوك فيه الى حد كبير مدى اعتبـــار النزعة المتطرفة ، بدون أى توصيف أكثر تحديدا ، مصطلحا مفيدا فى التحليل السياسى ، غير أن هذا ليس هو الجانب الذى يهمنى الآن ، فما يهمنى وطبيعة مناقشة لبست لعلاقة التطرف بالديموقراطية ٠ اذ نجده ككل المفكرين المحافظين قلقـــا بشأن التأكيد على البنـــاء الرسمى للضوابط والتوازنات داخـــل النسق

الديموقراطى (بدون البحث الدقيق فى الأسلوب الذى تعمل به فى الحقيقة) ، هذا الى جانب منع أو تمييع الفكرة الأكثر راديكالية عن الديموقراطية الحركة سياسية للجماعات والطبقات المحكومة ضد حكامها، والتى تحاول بقدر الامكان تأسيس حكومة بواسطة الشعب · ومن وجهة النظر الأخيرة فليس هناك شيء غير ديموقراطى فى الحركات الشعبية التى تعمل على التخلص من جماعات المصلحة التى تضر مناشطها غالبية السكان ، حتى ولو تضمن ذلك التقليل النسبى (لتعددية جماعات المصلحة) التى أعجب بها لبست الى حد كبير · وبهذا المعنى اعتبرت النزعة الشعبية الأمريكية American Populism حركة ديموقراطية شاملة تطورت عن حركات راديكالية زراعية سابقة موجهة ضد القوة المتزايدة للبنوك ، والطرق الحديدية ، والمؤسسات الكبيرة · حيث نقلت حركة جرانجر Granger Movement احدى هذه الحركات النزعة الشعبية الى الى الاهتمام بالتعاونيات وأسهمت أخيرا فيما أسماه لبست ذات مرة بالاشتراكية الزراعية(٦) · فقد تبنت الحركة الشعبية ، وبخاصة فى الجنوب ، قضية الزنوج والعمال الصناعيين ، وأسست العلاقات مع جماعات العمل(٧) · وبصورة عامة يبدو أن الحركة الاشتراكية فى بداية القرن العشرين قد حققت أكبر نجاح لها فى تلك المناطق التى كانت فيما سبق معقلا للنزعة الشعبية الأمريكية · وبرغم تبنى لبست وراب التفسير

---

(٦) Agrarian Sociolism : **The Cooperative Commonwealth Federation in Saskatchewan** (Berkely, 1950; revised edn, 1968)

حدد روبرت لند Robert Lynd فى تقييمه للطبقة الأصلية مسارا خصبا للبحث يمكن أن يتضح من هذه الدراسة (والذى كان عليه أن ينتظر اسهام المفكرين الآخرين فى نهاية حقبة الستينات) حين كتب : ليست هناك ظاهرة فى حاجة ملحة للدراسة اليوم اكثر من الظروف التى قد تظهر فى ظلها حركات اجتماعية جديدة ... فاستعادة الديموقراطية ، اذا كان ذلك فى الحقيقة ممكنا ، يمكن أن يحدث من خلال تفكير البشر مع بعضهم فقط فيما يريدونه وينظموا أنفسهم للتحرك الجماعى » ·

(٧) وصفت هذه الجوانب للنزعة الشعبية بدرجة جيدة ، ووضحت من خلال وثائق الحركة فى مؤلف نورمان بولاك : Norman Pollack, **The Populist mind** (New York, 1967).

وانظر أيضا المناقشة الواردة فى مؤلف ميشيل روجن Micheal P. Rogin, **The Intellectuals and McCarthy : The Radical Specter** (Cambridge, Mass, 1967) وبخاصة الفصل السادس

المحافظ للنزعة الشـــعبية ، حيث منحت العناصر المعـــادية للصـــناعة والليبرالية ، فى بعض أقسام الحركة ، أهمية غير ضرورية ، ومن ثم فقد دفعوا الى تضمين النزعة الشعبية بين حركاتهم المتطرفة : وعلى هـــذا النحـو تصبح المذهبيـة الشعبية شـكلا مغريا Seductive لنزعة الأخلاق السياسية ، المعادية للسياسة التعددية ٠

ويمكن التنبؤ بنتائج دراسة أجريت وفق هذا الاطار ٠ فطالما أنه قد تمت المساواة بين حركات الجناح اليسارى ، والجناح اليمينى ، كأعداء للديموقراطية ، فقد اختفى التمييز بين اليسار واليمين ٠ وفى هذا الصدد لم يصغ سؤال هـام يتعلق بكيفية تحـول بعض الحـركات الشعبيـة من معاداة القلة الحاكمة الى أن أصبحت مؤيدة للنظام القـــائم ، وأستعيد النسق السياسى الأمريكى كنموذج للنظام الديموقراطى ، وأعتبر النفور المتزايد من الحزبين القائمين نزعة متطرفة خطره وغير ديموقراطية ، تهدد القيم السامية للتعددية والاستقرار ٠ بل ان فكرة التعددية ذاتها قد أدركت بطريقة غريبة تتضمن أنه ينبغى المحافظة بعنـــاية على أى من جماعات المصلحة التى تصادف وجودها فى المجتمع الأمريكى ـ ابتداء من التلفزيون التجـــارى وحتى المافيـا Mafia ـ كعنصر فى النظام الديموقراطى ٠

اذن ، ماذا حدث بالنسبة للتحدى الذى ظهر فى الأيام الأولى من عام ١٩٦٨ بسبب الانفجار العنيف للقوى الجديدة ؟ ما الذى أصبحنا نحتاجه بالحاح لاعادة تقويم المناهج والمفاهيم فى علم الاجتماع السياسى ؟ تؤكد محاولة الاجابة على ذلك أن لبست قد تصرف بنفس أسلوب النسق الاجتماعى المثالى الذى تخيله الوظيفيون ، حيث استعاد توازنه بتأسيس تكامل بين تفسير الحركات الراديكالية الجديدة مع اطاره الفكرى القائم ، مع اجراء بعض التعديلات الطفيفة ، وبهذا الأسلوب تجنب لبست أى تغيير أساسى فى وجهة نظره ٠ وبالتوازن الذى أعاد تأسيسه أصـــبح بامكانه مزاولة النضال كمدافع غيور عن الحالة الراهنة ٠

وتتضح أهمية الأفكار الوظيفية بالنسبة للتفسير المحافظ للمجتمع من دراسة أخرى ظهرت فى ذات الوقت ، عبر فيها لبست بشكل مؤقت عن استياء

علماء الاجتماع السياسى من الامكانات التفسيرية لعلمهم · فقد استند مؤلف صمويل ب · هنتنجتون Samuel P. Huntington النظام السياسى فى المجتمعات المتغيرة (Political order in Changing Societies) الى مفهوم الاستقرار السياسى Politictl stability ووسع استخدامة لكى يؤسس تمييزا حادا بين المجتمعات الصناعية والمجتمعات النامية · وحسب قول هنتنجتون :

لا تتعلق أكثر أنواع التمييز السياسى أهمية بين الأقطار بشكل حكوماتها ولكن بدرجة حكوماتها ··· اذ تنتمى كل من الدول الشيوعية التسلطية والدول الليبرالية الغربية بصفة عامة لفئة الانساق الاجتماعية الفعالة وليست الضعيفة ··· فحكوماتها تختلف بدرجة واضحة عن الحكومات الموجودة فى كثير ان لم يكن فى معظم الأقطار المحدثة فى كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية » ·

لكن ما هو السبب فى كون التمييز أكثر أهمية ؟ بالتأكيد ليس ذلك بالنسبة لغالبية البشر الذين يميلون فى عصرنا الحديث على الأقل الى الدخول فى صراع من أجل الاستقلال عن الحكم الاستعمارى ، أو الذين يدخلون فى صراع ضد الدكتاتورية من أجل الديموقراطية ، أو ضد الرأسمالية من أجل الاشتراكية ، حتى لو كانت الفوضى ثمن ذلك ، أكثر من نضالهم من أجل النظام السياسى بذاته · وبايجاز فهم يريدون أشياء أخرى أهم من الحكومة الفعالة أو علاوة عنها · فهل هذا حينئذ هو التمييز الأكثر أهمية بالنسبة لعلماء الاجتماع ، لأنه يعينهم على فهم أفضل ، من أجل تفسير العمليات السياسية بصورة أكثر اقناعا ويبدو أن ذلك غير محتمل أساسا ، حينما لا يتطابق هذا التمييز مع التمييزات التى يؤسسها البشر فى حياتهم الواقعية · وعلى أى حال ، فانه ينبغى توضيح ذلك · فبرغم أن مؤلف هنتنجتون يوفر معلومات أكثر أهمية ومرتبة بصورة منظمة (والتى أمكن توفيرها بمساعدة أى من الأطر التصورية ، أيا كانت طبيعته) فانه ينتهى الى نتيجة أقل من الحقيقة الى حد كبير ، تعنى « ··· انه يتحكم فى المستقبل الذى ينظم سياسته » · ويتعلق السؤال الحقيقى الذى يحتاج الى اجابة بهذه العبارة · ما الذى يساعد جماعة من البشر دون أخرى ـ ما هى الظروف الاقتصادية ، ما هى العلاقات

بين الطبقات ، ما هى المؤثرات الخارجية ـ على تنظيم سياسة المجتمع ؟ وتحديد طبيعة النظام الذى ترتضيه ؟

وفى الحقيقة يعتبر تأكيد هنتنجتون غير منهجى وغير امبيريقى ؛ وانما هو حكم قيمى · هدفه أن يدفعنا الى رؤية العالم بطريقة معينة ، أن نسبغ قيمة عليا للغاية على الاستقرار السياسى ، وأن ندرك المشكلات السياسية للبلاد النامية ليس بالنظر الى امكانية الاختيار بين النظم regiems البديلة ولكن بالنظر الى أسلوب تاسيس النظام order · وأخيرا يتحدد الحل الذى قد يفضله هنتنجتون ، حينما يشير الى امكانية « ··· وجود بعض التطور تجاه نموذج النسق الأمريكى » ، فى مجتمعات أوربا الغربية أولا ، طالما أنها خلصت نفسها من الصراع الطبقى ، وبالتالى فى الأقطار النامية (التى أصبحت أكثر تحديثا) · اذ يرى هنتنجتون مثل لبست النسق السياسى الأمريكى كنموذج لتحقيق الديموقراطية المستقرة ·

وبرغم استناد هذا الاطار للتحليل على التقويم الا أنه بغير شك له جانب امبيريقى · أذ يعتمد التقابل الحاد الذى حاول هنتنجتون تأسيسه بين النظام السياسى فى أحد نماذج المجتمعات وبين الفوضى السياسية فى آخر على الحكم المشتق من افكار بارسونز ولبست ، والذى يعنى أن المجتمعات الصناعية تمتلك أنساقا سياسية مستقرة · ومن ثم ، فبعد ملاحظة أن السياسة فى هذه الأقطار « ··· تتضمن الاتفاق ، والمصالح المشتركة ، والمشروعية ، والتنظيم والفاعلية والاستقرار » نجده يصف حالة المجتمعات النامية بالطريقة التالية :

« مع بعض الاستثناءات البارزة ، تميز التطور السياسى لهذه المجتمعات فيما بعد الحرب العالمية الثانية بازدياد الصراع الطبقى والاثنى، بالعنف الجماهيرى والشعبى المتكرر بالانقلابات العسكرية الدائمة ، بسيطرة قادة غير مستقرى الشخصية ، غالبا ما ينتهجون سياسيات اقتصادية واجتماعية مدمرة ، بالفساد الفادح والمنتشر بين وزراء الدولة والموظفين المدنيين ، بالانتهاك الاستبدادى لحقوق وحريات المواطنين ، بانخفاض معايير الانجاز والكفاءة البيروقراطية ، بالاغتراب الشائع للجماعات

السياسية الحضرية ، بافتقاد سلطة البرلمانات والهيئات التشريعية ، بتشتت وفى بعض الأحيان الانهيار الكامل للأحزاب السياسية ذات القواعد العريضة » ٠

ومع ذلك ، فقد أمكن خلال السنوات القليلة الأخيرة تسجيل عدد من الظواهر التى شقت طريقها الى الظهور فى المجتمعات الصناعية المستقرة ٠ (الغربية والسوفيتية) ٠ وبدا من المشكوك فيه ما اذا كان يمكن لمصطلح (الاستقرار السياسى) أن يظل ملائما بدقة لمعظم هذه المجتمعات ٠ والتى على العكس قد تكون على حافة تحولات سياسية هائلة ٠ ومن ثم فقد يكون أكثر واقعية أن ننظر الى السياسة العالمية من وجهة نظر التغيرات الراديكالية التى تهيأ أو تكرس فى كل من المجتمعات الصناعية والنامية ، على أن من الضرورى أى نأخذ فى الاعتبار فى ذات الوقت الأساليب التى تتفاعل بها التغيرات التى تقع فى قسمى العالم ، كل من الآخر ٠

ومع ذلك ، فالقول بهذا يثير قضية أخرى ٠ اذ تأثر التفكير الاجتماعى بقوة بواسطة اعادة احياء النزعة الراديكالية وبخاصة فى الجامعات مثلما تأثر فى حقبة الخمسينات بواسطة المزاج المحافظ الذى كان سائدا حينئذ ٠ وتعبر فكرة علم الاجتماع النقدى الذى نما عن روافد عديدة للنقد الاجتماعى فى العقد الماضى وبخاصة عن أعمال س ٠ رايت ميلز C. Wright Mills عن هذا التوجيه الراديكالى ٠ غير أنه حتى الآن لم يضمن فى اطار نظرية اجتماعية جديدة ، فمازال البديل الرئيسى لعلم الاجتماع المحافظ لحقبة الخمسينات كما يمثله بدقة بارسونز ولبست ، يتمثل فى أى من أشكال الماركسية التى تقف على طرف النقيض مع الاتجاه الوظيفى ، والتى ينصب اهتمامها الأساسى على صراع القيم والمصالح فى المجتمع ، أو بظهور ونمو الحركات الاجتماعية ، والقوى الاجتماعية التى تؤسس تغيرات تاريخية بعيدة المدى ، والتى تعتبر راديكالية فى رؤيتها لمستقبل مجتمع المساواة Egalitarian ٠ بيد أن الماركسية وقعت فى أزمة أيضا بسبب ظهور الانفصال بين الأفكار النظرية والمثل السياسية للماركسية

الكلاسيكية وبين الحقائق الاجتماعية للقرن العشرين · فعلى عكس ما تخيل ماركس وقعت الثورة فى مجتمعات الفلاحين · وفقدت الطبقة العاملة فى المجتمعات الرأسمالية قدرا من ريادتها كقوة للتغير ، فلم تعد ثورية فى أى مكان · وطرح تضاءل أهميتها فى عملية الانتاج وموقفها الاجتماعى المتغير تساؤلا يتعلق بمدى بقائها قادرة على انجاز الدور الذى عينه ماركس لها · وفى نهاية الامر تحولت الاشتراكية ـ مجتمع البشر المحررين المتعاونين والسعداء ، الذى تخيله ماركس ـ لكى تصبح فى كثير من الأقطار كابوسا بيروقراطيا ثقيلا ·

ولم تؤد محاولات المفكرين الماركسيين لمواجهة هذه الصعوبات الى اعادة صياغة الماركسية كنظرية اجتماعية قادرة على تفسير وقائع القرن العشرين · حيث لم يكن ذلك فى الحقيقة ممكنا · وأوحت كثرة المناقشات التصورية والمنهجية ، وعدم اليقين المتزايد فيما يتعلق بالحدود الدقيقة للفكر الماركسى فى علاقته بالأفكار السوسيولوجية والفلسفية الأخرى (على سبيل المثال أفكار الوجودية ، الاتجاه الفينومينولوجى ، والبنائية) بانهيار اتجاه عقلى متميز · وفى أثناء هذه العملية ، تم استيعاب أفكار ماركسية عديدة ، ربما بطريقة غير منظمة ، فى اطار علم الاجتماع النقدى الجديد · ويعتبر التصور التاريخى الذى يتطلب وجوب دراسة وقائع معينة فى اطار سياقها الأوسع ، كحوادث فى نطاق عمليات بعيدة المدى للتغير الاقتصادى والاجتماعى من أكثر الأفكار أهمية فى المرحلة الحالية للعلوم الاجتماعية · فاذا لم يؤسس علماء الاجتماع النقدى دراساتهم بهذا الأسلوب ـ ولنقل مثلا اذا هم تناولوا ثورانات upheavals حقبة الستينات كأحداث فريدة ، أو ظواهر ثورة لازمانية يسعدون بها ـ فانهم سوف يتبنون أساسا وجهة نظر الذين ينتقدونهم ، بنفس أسلوب ادراك المطلق غير التاريخى · سوف تختلف استجابتهم الأخلاقية ، غير أنهم لن يصلوا الى فهم أفضل لمسار الأحداث ، وسوف لا يكون لديهم شى ذو قيمة يبلغونه هؤلاء الماضون فى تضالات واقعية لخلق مجتمع جديد ·

ومفاهيم المفكرين الأربعة الذين حلل أعمالهم ، فانهم جميعا ســـاهموا بعناصر (فى نظرية الفعل الاجتماعى) التى تعتبر تصورا جديدا للانسان والمجتمع ، والتى شكلت محور الفكر السوسيولوجى الحديث · (سوف أتعرض بايجاز لفكرة الفعل الاجتماعى هذه) ·

ومبدئيا ظهر كتاب تالكوت بارســـونز كتفسير لمرحلة فى التاريخ العقلى الأوربى · ومن ثم فهو ناقص بشـكل محزن ، لأنه يتجاهل ربما بشكل كامل أعمال اثنين من المفكرين ــ ماركس Marx وفرويد Freud المسئولين فوق كل شىء عن الثورة فى تصورات البشر لحياتهم الفردية والاجتماعية · ومن وجهـة النظر هـذه قدم كارل لوث Karl Löwith (٣) فى دراسته عن حركة الفكر من هيجل Hegel الى نيتشه Nietzsche تأريخا واضحا الى حد كبير عن هذه الفترة ، وأيضـــا ستيوات هوغ H. Stuart Hughes (٤) فى دراستـه عن الحـوار حـول الماركسيـة ، والثورة ضـد الوضعية ، ثم محاولة ماكس فيبر التوفيق بين الاتجاهات المثالية والوضعية والعبور بينها فى اطار العلم الاجتماعى ·

وحتى لو نظرنا الى كتاب بارسونز باعتباره يتناول النطاق الضيق لتشكل علم الاجتماع الأكاديمى ، فانه برغم ذلك يلغى كثيرا من الجوانب الهامة للغاية بالنسبة لهذا التطور أو يحرفها ، كما أوضحت ذلك بعض التأريخات الحديثة للتفكير السوسيولوجى(٥) · اذ لا نجـــد مكانا فى دراسـة بارسـونز لتـأثير المفـكرين المحافظين كـدى بونال De Bonald ودى ميستر De Meistre ، أو اسهامات سان سيمون Saint - Simon ودى توكفيل De Tocqueville · أما هربرت سبنسر Herbert Spencer

---

(٣) Karl Löwith, From Hegel to Nietzsche : **The Revolution in 19th Century thought** (New York, 1964).

(٤) H. Stuart Hughes, **Consciousness and Society : the Reorientation of European Social thought**, 1890 - 1930 (New York, 1958).

(٥) See, in Particular, Raymond Aron, **Main Currents in Sociological thought** (New York, 1965 and 1967) Vol. I and II; Robert Nisbet, **The Sociological tradition** (New York, 1966).